تراث الإنسانية

غادة الكاميليا

لألكسندر ديماس الابن



الهيئة
المصرية
العامة
للكتاب

د. كوثر عبدالسلام البحيرى

مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٤

غادة الكاميليا

لألكسندر ديماس الابن

د . كوثر عبد السلام البحيرى



مهرجان القراءة للجميع ٩٤

مكتبة الأسرة

(تراث الإنسانية)

الجهات المشتركة :

جمعية الرعاية المتكاملة

وزارة الثقافة (هيئة الكتاب)

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الحكم المحلى

المجلس الأعلى للشباب والرياضة

الانجاز الطباعى والفنى

محمود الهندى

مراد نسيم

احمد صليحة

المشرف العام

د . سمير سرحان

غادة الكاميليا لإلكسندر ديماس (الإبن)

الدكتورة كوثر عبد السلام البحيرى

منهج البحث : حياة المؤلف ـ مؤلفاته ـ الظروف التى دفعته إلى كتابة «غادة الكاميليا» ومن هى المرأة التى أوحت إليه بها ـ الرواية والمسرحية ـ النجاح الذى حققته ـ أثرها على الأدب العالمى والأدب العربى .

ولد الكسندر ديماس الابن فى باريس فى مناحية مارلى ـ لى ـ روا سنة ١٨٢٤ وهو الابن البكر للكاتب الروائى المعروف الكسندر ديما صاحب الروايات التاريخية العديدة التى أهمها الفرسان الثلاثة وعقد الملكة، وكان عمر الكسندر ديما الكبير يوم ولادة ابنه واحدا وعشرين عاما فقد ولد الأب سنة ١٨٠٣ ، وقد تأثر الكسندر ديماس الابن بوالده تأثيرا كبيرا وامتلأ به اعجابا فلا غرو أن بدأ يكتب الروايات غداة اتمام

دراسته الثانوية وكانت أول رواية ينشرها هى غادة الكاميليا» التى كتبها كما يقول هو نفسه فى مقدمة هذه الرواية فى أسبوع . ثم تحول عن كتابة الرواية إلى المسرحية فغذى المسرح الفرنسي بمسرحيات تمتاز بحسن الحبك والبناء وتفيض بروح الفكاهة والسخرية(١) ومسرحياته دائما هادفة وكانت فكرته الرئيسية التى يدعو إليها فى جميع مسرحياته هى إعادة بناء المجتمع عن طريق اصلاح الأسرة التى ينبغى أن تبنى على الحب لا على المال .

وأهم مسرحياته هى : غادة الكاميليا ، وادى الزفاف ، أنطونين ، مغامرات أربع نساء ، العلبة الفضية، أقاصيص ، غادة اللؤلؤ، صديق النساء، المجتمع الثانوى ، الابن غير الشرعى، الأب المبذر ، الأميرة جورج، أفكار مدام أوبرى، فرانسيللون ، ديانا غادة الليس، أستراحة ، مسألة طلاق، قصة امرأة، المسرح الكامل ، مسرح الآخرين، دنيس الخ .. وقد قبل الكسندر ، ديماس الابن عضوا فى الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٧٤ وتوفى سنة ١٨٩٥ .

---

(١) السخرية .

ولا يعتبر الفرنسيون الكسندر ديماس الابن من كتاب الدرجة الأولى ولذا فقلما درس لذاته فى الجامعات وإنما يدرس عادة ضمن كتاب الدرجة الثانية من أمثال أمل أوجييه،وجول ساندو. الا أن كل من يدرس المسرح الفرنسى فى القرن التاسع عشر دراسة خاصة لابد أن يمر به . ومن عجائب القدر أن المسرحية التى منحته الشهرة وقدر لها أن تؤثر فى الأدب العالمى هى أول مسرحية كتبها فى حياته حين كان بعد صبيا يافعا ناقص الخبرة غير مكتمل النضج وهى مسرحية غادة الكاميليا وذلك ولاريب لصدق المشاعر التى كانت تهزه حين كتابتها ولطرافة الموضوع ونبوعه من صميم المجتمع الفرنسى ولمعالجته لداء من أهم الأدواء الاجتماعية التى تفشت فى المجتمع فى ذلك الوقت. وفى ذلك يقول المؤلف فى مقدمة الطبعة الكاملة لمسرحياته :

«لتعرف اذن يا صديقى القارىء أننى كتبت هذه المسرحيات بكل ما أدين به لفنى من حب واحترام فيما عدا الأولى «غادة الكاميليا» التى «وضعتها» فى ثمانية أيام دون أن أدرى كنه ذلك، تدفعنى جرأة الشباب وما يصادفه من حظ حسن. وكان الدافع الخفى لى هو الرغبة فى الحصول على المال لا الايحاء المقدس. وقد

دفعت الجزء الأكبر من ديونى واستطعت أن أولى المسرحية التالية مزيدا من العناية والوقت (وهى مسرحية «ديانا غادة الليس») ومع ذلك فأخشى أن تجدها أقل من الأولى. ولما كنت بعد عرض هذه الأخيرة قد سددت جميع ديونى فقد استطعت تخصيص أحد عشرا بطولها لتنفيذ المسرحية الثالثة «العالم الثانوى» التى يصر الناس على اعتبارها أحسن من سابقتيها . أما أنا فأصر على تفضيلها جميعا بالتساوى ، فقد منحتنى لذة فى العمل وشهرة أكثر مما أستحق وعرفت من خلالها أنبل عواطف الفكر والاستقلال الذى جعلنى سعيدا وطيبا» .

وقبل أن نبدأ فى دراسة الظروف التى أوحت لألكسندر ديماس الابن بمسرحيته وروايته لابد أن نقدم ملخصا موجزا لهذه وتلك. أما المسرحية فتدور أحداثها كما يلى :

• الفصل الأول ـ مارجريت جوتييه وسط أصدقائها فى حياة ماجنة صاخبة رغم الداء الذى أخذ ينخر فى عظامها .

بداية التعارف بينها وبين أرمان دوفال الذى أحبها دون أن يعرفها وكان لا يكف عن الوقوف ببابها

والسؤال عنها أثناء مرضها. مارجريت تتأثر لصدق مشاعر أرمان نحوها فتبادله حبا بحب.

الفصل الثانى ـ بداية حياة الحب السعيد بينها رغم استمرار مارجريت فى حياتها الماجنة وان كانت قد بدأت تقطع علاقاتها بعشاقها ومنهم الكونت دى ج .

الفصل الثالث ـ مارجريت وأرمان يغادران باريس إلى الريف. مارجريت تنقطع جميع مواردها المالية من عشاقها وكذلك من الدوق وهو الرجل المسن الذى كان قد تولى دفع نفقاتها الباهظة لعطفه عليها لأنها تشبه ابنته التى ماتت بنفس داء مارجريت شبها غريبا . وقد كف الدوق عن الاستمرار فى الدفع لأنه كان يعتقد أنها فى الريف للراحة والعلاج فحضر لزيارتها فجأة فوجدها تتناول الغداء مع خمسة عشر شخصا من الأصدقاء كما أنه علم بعلاقتها بأرمان . مارجريت بدأت تبيع ما تستطيع الاستغناء عنه من مظاهر الترف مثل العربة والملابس الكاشمير وترهن مجوهراتها .

والد أرمان يحضر لزيارتها فى غيبة ابنه ويطلب منها التضحية بسعادتها وحبها من أجل ابنته التى يرفض خطيبها اتمام الزواج ما لم يقطع أرمان صلته

بمرجريت. رغم أن هذا الحب هو ومضة السعادة الوحيدة بالحياة الا أنها توافق على التضحية من أجل سعادة أرمان وأخته وتؤكد قبول التضحية بقبلة طاهرة طلبتها من والد أرمان .

مرجريت تحاول أخفاء الأزمة التى تجتازها عن أرمان وتخرج بحجة الابتعاد عن البيت بعض الوقت فربما يحضر والده لزيارته . ثم تبعث له بكلمة مع رسول تقول له فيها ان كل ما بينهما قد انتهى وأنها الآن عشيقة رجل آخر .

الفصل الرابع ـ مرجريت تعود إلى حياة الصخب وتسوء حالتها . أرمان يعود كذلك إلى نفس الحياة الماجنة ويلتقى بها فى كل مكان ليوجه إليها الأهانات علنا لأنه أساء تأويل الطريقة التى هجرته بها. مرجريت تستدعيه وترجوه أن يرحمها ويكف عن توجيه الأهانات إليها لأنها تخشى أن يبارزه عشيقها الكونت دى فارفيل ويقتله . أرمان يعرض عليها حبه من جديد فترفض فيوجه إليها أهانة قاسية فى حضرة جمع كبير من رواد هذا الوسط الماجن ويلقى بها بحزمة من الأوراق المالية ثمنا للحب الذى لم يكن قد دفع ثمنه حتى الآن .

الفصل الخامس ـ نرى مرجريت فى فراشها فى حالة مرض شديد . انها مازالت محاطة بالأصدقاء الذين يعطفون عليها لذاتها ويدفعون لها ديونها ، وهى مازالت تغمر صديقاتها بالهدايا، مثل «نيشيت» بمناسبة زواجها من صديقها جاستون ، وتعطي لبرودانس مالا هي في أشد الحاجة إليه. والد أرمان يرسل لها خطابا يؤكد فيه أنه رجع فى تصميمه وأنه سوف يكتب لابنه ليعود إليها لأنه تأكد الآن من أنها خير ممن يسمين أنفسهن بالفتيات الشريفات . أرمان يعود فى الحظات الأخيرة لمرجريت وبعد أن يئست من عودته . مارجريت تشعر لفرط سعادتها أنها شفيت ولكنها تموت بعد قليل بين ذراعي أرمان ووسط قبلاته ودموعه . وآخر كلمة فى المسرحية تنطقها صديقتها نيشت اذ تقول : لأ نامى فى سلام يا مرجريت ! سوف يغفر لك الله كثيرا لأنك أحببت كثيرا» .

أما الرواية فتختلف اختلافا كبيرا عن المسرحية ويبدو فيها واضحا أن المؤلف منحها مزيدا من العناية الفنية فى الأسلوب والحبكة القصصية واستفاد من طبيعة هذا اللون الأدبى لون الرواية ليقدم للقارىء وصفا مفصلا لحياة مرجريت وجمالها وملابسها وفى

تصوير المجتمع الباريسي عامة ودنيا بنات الهوى بصفة خاصة. وثمة اختلافات جوهرية في مجرى الأحداث بين المسرحية والقصة وهناك شخصيات تظهر في المسرحية ولا تظهر في القصة وبالعكس. وتتركز أهم الاختلافات في الخاتمة . ففي الرواية، وبعد أن تهجر مارجريت أرمان بناء على طلب والده يعود كل منهما إلى نفس الوسط الماجن ويعقد أرمان صلة باحدى فتيات الهوى تسمى أولمب ربما تكون أجمل من مارجريت خلقا ولكنها مختلفة عنها خلقا اختلافا تاما فما يلبث أن ينفر منها وتحضر مرجريت إلى شقته لتتوسل إليه أن يرحمها ويكف عن توجيه الأهانات إليها فيضعف كل منهما أمام الآخر ويعودان لحبهما رغم حمى الداء الذى ينخر في عظامها . وفي اليوم التالي تصر مارجريت على اعادة قطع العلاقة تمسكا منها بعهدها فيعود أرمان لأهاناته . مارجريت تسافر أرمان سفرا طويلا . ثم تسقطت مارجريت أمام ضربات دائها المتوالية وتتلقى من والد أرمان غفرانا وصفحا ومساعدات مالية ولكنها تنتظر عودة أرمان دون جدوى وتموت وحيدة بائسة ولا يحضر لحظة اسلامها الروح الا صديقة واحدة ويباع أثاث منزلها ومخلفاتها بعد ذلك ويصعق لخبر وفاتها ويصر

على نقل رفاتها إلى مقبرة أخرى ليتمكن من رؤيتها وتؤدى أزمته النفسية تلك إلى أزمة مرضية ثم يشفى . وتختتم القصة بمذكرات مرجريت المؤثرة .

ولاشك أن السبب الذى دفع المؤلف إلى هذا الاختلاف البين بين القصة والمسرحية لاسيما فى الطريقة التى ماتت بها مرجريت فى كلتا الحالتين إنما يرجع قبل كل شىء إلى رغبته فى التأثير على المشاهدين أو القراء . فلو أنه جعل مرجريت فى المسرحية تموت دون رؤية حبيبها أرمان لاضطره ذلك إلى أن يخوض فى تصوير منظر الاحتضار الطويل أو الدخول فى حوار بين مرجريت وصديقتها فى جو جنائزى منفر . فلابد اذن أن يكون احتضار مرجريت قصيرا ومؤثرا ولا يكون كذلك الا بعودة أرمان فى اللحظات الأخيرة . أما فى الرواية فمجال الوصف واسع أمام المؤلف كما أنه يتجه بتصويره لخيال القارىء ومشاعره فى وقت واحد فلديه اذن فرصة للتأثير فيه واسالة دموعه وبوصف الاحتضار الطويل والآلام العنيفة التى قاستها مارجريت فى لحظاتها الأخيرة . ثم يقدم المؤلف لقارئه مذكرات مارجريت ليقرأها على مهل ويبكي ما شاءت له دموعه ذلك .

وقد صادف المؤلف صعابا كثرا ليحصل على اذن بعرض مسرحيته . فقد كتبت المسرحية سنة ١٨٤٩ وقدمت إلى المسرح التاريخى الذى أغلق قبل العرض . ولم تقبل فى مسرح الفودفيل الا بتدخل من الممثل هيبوليت دورمز . ولم تعرض فى هذا المسرح الا فى ٢ فبراير سنة ١٨٥٢. وقد منعت الرقابة هذه المسرحية عاما كاملا فى وزارة ليون فوشيه رغم المساعى الضخمة التى بذلها المؤلف ووالده والتى وصلت إلى رئيس الجمهورية فقد كتب ثلاثة من الكتاب المعروفين هم جول جانان وليون جوزلان واميل أوجييه توصية بصلاحيتها للعرض وأرسلت هذه التوصية إلى الكونت دى مورنى الذى كان يتولى حمايتها ثم إلى رئيس الجمهورية الذى كان يتولى حمايتها ثم إلى رئيس الجمهورية الذى حولها إلى رئيس الوزراء الذى رفض قبول هذه التوصية رفضا قاطعا . وتدخل الكسندر ديما الأب فتلقى نفس الجواب بالرفض، وقيل له أنه طالما كان ليون فوشيه فى الوزارة فلن تعرض هذه المسرحية . وقال الابن سأنتظر.

وانتظر الكسندرديماس الإبن ، وفعلا عين الكونت دى مورنيه الذى كان يرعى المؤلف ، فى الوزارة محل

ليون فوشيه ، أى حل الصديق الخدوم محل الوزير الذى يعرقل وكانت تلك خبطة من خبطات الحظ. وقد حدث ذلك فى ٢ ديسمبر. وقد حققت المسرحية نجاحا هائلا الا أن الرقابة عادت فمنعتها ثم أجازتها ثم منعتها مرة ثانية مشترطة اجراء بعض التعديلات بها. وكان بعض هذه التعديلات تافها لا ضرر منه وبعضها ذا فائدة . وبعد اجراء التعديلات المطلوبة أقرتها الرقابة وصارت منذ ذلك الوقت فى حمى القانون . وكانت أول من أدى دور غادة الكاميليا هى الممثلة مدام دوسن فأحسنت أداءه لدرجة ان اسم غادة الكاميليا التصق بها .

ولابد أن نتوقف هنا قليلا لنتعرف على الفتاة التى أوحت للمؤلف بشخصية البطلة مارجريت جوتييه وفى أى ظروف عاشت تلك الفتاة . وفى ذلك يقول الكسندر ديماس الإبن فى مقدمة روايته : «ان الشخصية التى كانت لى مثلا فى الرواية والمسرحية كان اسمها الفونسين بليسى وهو اسم كونت هى نفسها منه اسما أكثر رقة وعذوبة هو مارى دبليسى . كانت طويلة القامة نحيلة القوام ذات شعر اسود . وكان لونها أبيض مشربا بالحمرة . وكانت رأسها صغيرة وعيناها لامعتين

مستطيلتين كعيون اليابانيات ، ولكنها كانت مليئة بالحيوية والرقة وشفتاها فى حمرة الكرز وأسنانها أجمل أسنان فى العالم . وكان المرء اذا رآها يظنها تمثال من «الساكس» . ولما رأيتها سنة ١٨٤٤ لأول مرة كانت فى أوج عزها وجمالها . وماتت سنة ١٨٤٧ بمرض صدرى وهى فى الثالثة والعشرين من عمرها .

«كانت واحدة من قلة من بنات الهوى تتميز بقلب كبير ، ولا شك أنها ماتت فى شرخ شبابها لهذا السبب . كانت لا ينقصها لا الذكاء الألمعى ولا التعفف . وقد انتهت فقيرة فى شقة فاخرة حجز عليها الدائنون . كانت متميزة تتسم ملابسهابذوق رفيق وتمشى فى رشاقة وربما كذلك فى نبل. وكان الناس يظنونها كذلك. كانت فلاحة من احدى قرى غرب فرنسا، وقد خصها تيوفيل جوتييه ببعض أسطر رثاء تصور هذه النفس الصغيرة الرقيعة التى سوف تخلد الخطيئة» .

«ومع ذلك فلم تمر مارى دبليسى بجميع الأحداث المؤثرة التى مرت بها مرجريت جوتيه ولكنه كانت لا تتمنى الا أن تمر بها. واذا كانت لم تضح بشىء من أجل أرمان فما ذلك الا لأنه لم يشأ ذلك من المسرحية ،

وكانت تعود فتلعبهما من جديد كما كانت بينيلوب تعود لتنسج نسيج لوحتها من جديد . ولكن كان النهار هو الذى يأتى ليهدم عليها أبدا فى حياتها اسم «غادة الكاميليا». ان هذا اللقب الذى منحته أنا لمرجريت جوتييه محض اختلاق ومع ذلك فقد تعلق بمارى دبليسى حينما ظهرت القصة بعد وفاتها بعام واحد فإذا ذهبت لمقبرة مونمارتر وطلبت مشاهدة قبر غادة الكاميليا فسوف يقودك الحارس إلى شاهد مربع صغير يحمل اسم الفونسين بليسى وسوف تجد تحت الاسم تاجا من زهور الكاميليا الصناعية معلقا على القبر فى علبة من الزجاج. ان لهذا القبر الآن أسطورته . والفن مقدس فهو اما يخلق أو يبعث الناس أحياء » .

ولاشك أن مارى دبليسى هذه قد لفتت نظر كثير من الكتاب فى ذلك الوقت فأفرد لها جول جانان مقدمة طريفة للرواية لابأس هنا من أن نورد مقتطفات منها لدلالتها على المجتمع الذى عاشت فيه تلك الفتاة والذى صوره الكسندر ديماس الابن فى روايته ومسرحيته على السواء .

يقول جول جانان فى هذه المقدمة : «فى سنة ١٨٤٥، فى سنوات الرخاء والرغد الذى عم فرنسا

عاشت فتاة ساحرة جذبت إليها جميع الأنظار لا سيما من لا يعرفون لا اسمها ولا المهنة التى تمارسها كانت تصرفاتها لا تشجع على الاقتراب منها ومشيتها متحفظة كمشية امرأة من أرقى الأوساط الاجتماعية وكان من يراها لا يشك فى أنها من نساء البلاط .

«وللأسف لم تكن مارى من نساء البلاط وإنما ولدت فى أسفل السلم الصعب. وكان لابد أن تكون جميلة وساحرة لتستطيع الصعود بخفة إلى الدرجات الأولى منذ سن الثامنة عشرة. وأذكر أننى رأيتها للمرة الأولى فى مسرح قذر من «مسارح الطريق» ، ردىء الاضاءة غاص بهذا الجمهور الطنان الذى يحب مشاهدة الميلودرام ذى المناظر الكبيرة . وكان هذا الجمهور شعبيا تكاد الطبقة الراقية تختفى منه وكان الحديث فيه يدور عم كل شىء ابتداء من الفن المسرحى حتى البطاطس المحمرة وحينما ظهرت هذه المرأة خيل للناس أنها أضاءت كل هذه المشاهد الشعبية أو التهريجية بنظرة واحدة من عينيها الجميلتين . ومشت على أرض المسرح الملطخة بالطين كما لو كانت تعبر الطريق فى يوم مطير، ورفعت ذيل ثوبها لتحميه من القذارة لاالترينا قدمها الجميلة .... وكانت كل ما تريديه

يتناسب مـه هذه القـامـة الفـارعـة الشـابة، وهذا الوجـه البيضـاوى الشـاحب كان يتجـاوب مع هذا السحر الذى تنشره حولها كعطر جميل جذاب .

«ودخلت واجتـازت القـاعة برأس مرفوعة ودهشت أنا وصديقى حين أتت لتجلس دون كلفة بجوارنا . كانت تتميز بذوق وحس رفيعين . وقد وجهت الكلام فى أول الأمر إلى صديقى الفنان الموسيقى الكبير. قالت له أنها استمعت إليه فيما مضى وأنه جعلها تحلم . أما هو فقد استمع كالمأخوذ إلى هذه اللغة الجميلة المليئة بالأفكار البلغية الحالمة. ورغم معرفته التامة بأرقى الأوساط فقد تساءل عمن عساها تكون هذه المرأة النبيلة التى لا تخلق مع ذلك أية كلفـة بينهـا وبين النـاس والتى تبـادئك هى بالحديث ثم تعاملك فى تعال كما لو كان أحد قد قدمك إليها فى لندن فى محيط الملكة أو دوقة سوذرلاند .

ولما دقت دقات المسرح التقليدية الثلاث استطعنا تأملها ما شاء لنا التأمل ابتداء من الكسرات المطرزة فى تنورتها إلى شبكة «الكروشيـة» التى كانت تضع فيـها شعـرها . كـانت يدها فى القـفاز تجـعلك تظن أنك أمـام لوحـة رائعة وكان منديلها مـحلى بدنتـلا تليق بالملكات ،

وكانت تحلى أذنيها بلؤلؤتين كفيلتين باثارة الغيرة فى قلب الملكات . كانت ترتدى كل ذلك كما لو كانت ولدت فى الحرير والقطيفة وتحت الزينات المذهبة فى أحد قصور الأحياء الكبيرة والتاج فوق رأسها وعالم من المتملقين تحت قدميها . وهكذا كانت ملابسها متناسقة مع لغتها وأفكارها وابتسامتها وزينتها وشخصيتها . وعبثا يحاول المرء أن يجد من هى أجمل منها ولا أكمل تناسقا فى الزينة والملبس والحديث فى أرقى الأوساط .

... ومر الشتاء ، وأتى الخريف الذى يليه . وكان ذلك فى دار الأوبرا وفى عرض من العروض المتألقة وحدث أن فتحت احدى المقصورات الأمامية وصحب ذلك دوى كبير وتقدمت هى إلى الأمام وفى يدها باقة من الزهور . وكانت هذه المرة ترتدى ملابس السهرة الفاخرة كامرأة تساير آخر تطورات الأزياء . وكانت تتلألأ فى زينتها الفاخرة. وكانت تسريحتها تخلب الألباب وشعرها الجميل مختلطا بالماس والزهور وقد صفف بشكل يبرز ما فيها من حركة وحيوية . وكانت ذراعاها وصدرها عاريين يظهران ما تتحلى به من عقود وأساور وزبرجد . وكانت تمسك بيدها باقة من أى لون؟ لا أستطيع أن أؤكد .. ولكن فى هذه المرة كان يبدو

عليها التعب ولذا فسرعان ما دخلت إلى مقصورتها واكتفت بالنظر بمنظارها إلى جمهور الحاضرين .

وكان يرافقها في هذه المرة فارس جميل نضف باريس تبدو عليه آثار الثراء الذى حلبه من بيت أبيه والذى أتى لينفقه قيراطا اثر قيراط في مدينة الضياع هذه . وكان الشاب في فجر حياته فبدا فخورا بهذا الجمال الذى بلغ أوجه وكان مزهوا لأنه يملكه وحده. وكان يلاحقها بانذاراته الغيورة العزيزة لدى المرأة حين تصدر من العاشق المحبوب . ولم تكن هى تستمع إليه. ماذا كانت تقول له ؟ لا أدرى ولكنها كانت تجيب عليه بكلمات جوفاء لا معنى لها ولكنها كانت تتبعها .

لم يكونا وحدهما في هذه المقصورة التى كان ايجارها يكفى لاطعام أسرة لمدة ستة شهور فقد تسلل بينهما الرفيق الدائم للنفوس المريضة والقلوب الجريحة والأذهان الخائرة القوى ألا وهو الملل. لقد كانت هذه الخاطئة اذن تشعر بالملل وسط ابدى جمالها وشبابها . وكان هذا الملل هو العقاب الذى سلط على ترفها العابر. كان الملل هو آفة حياتها لطول ما رأت حبها يتحطم ولطول ما اضطرت للاستجابة لضروريات علاقاتها

السريعة والانتقال من حب لحب ولا ضطرارها لخنق أى حب ولد أو أى مشاعر فى فجرها . ولذا فقد تولد لديها الشعور بعدم المبالاة فلم تعد تفكر لا فى حب الأمس ولا اليوم ولا الغد .

لقد كانت هذه التعسة فى حاجة إلى الوحدة لتريحها من الكلام الرتيب المتكرر الذى تسمعه دائما أذنها المجهدة . كانت تريد الهدوء وكانت مضطرة لتجر نفسها فى الحفلات والصخب. كانت تريد الحب ولكنهم كانوا يقولون لها انها جميلة فاندفعت فى الدوامة التى افترستها والتى تذكرنا بالآنسة نيفون دى لنكلو حين بلغت أوج عزها وابهتها وأصبحت صديقة الأمير دى كونديه فقالت ذات يوم : «لوعرضت على هذه الحياة التى عشتها يوما لمت من الارتياع والألم» .

رأيتها تلتف بمعطف مبطن بفراء الهرمين المأخوذ من حيوانات صغيرة السن. ولم يكن رفيقها يهتم بما يبدو عليها من تعب ولا يبالى بما تشعر به من برد . كان مشغولا بدفع «البقشيش» لعاملة المقاصير التى كانت تفك له قطعة من ذات الخمسة فرنكات فسمعتها تقول لها : «احتفظى بها كلها يا سيدتى» وحيتها تحية رقيقة.

ورأيتها وهى تهبط السلم وقد انفصل ثوبها الأبيض عن معطفها الأحمر وعقدت منديلها على رأسها من تحت ذقنها وكانت الدنتلا تتدلى على وجهها قليلا ولكن ما أهمية ذلك! لقد لعبت السيدة دورها وانتهى العمل بالنسبة لهذا اليوم. فلم تعد تهتم بجمالها ، ولابد أنها فارقت الشاب على باب فى هذا المساء .

ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الشابة التى كانت تنفق الذهب والفضة ملء يديها لأنها كانت ذات نزوات وكانت محبة للخير ولا تقدر قيمة هذا المال الذى دفعت ثمنه غاليا لم تكن بطلة لأية قصة من قصص الافلاس والخراب والدراما والديون والمبارزات التى كانت تثيرها غيرها من النساء فى طريقهن . أما هى فلم يتحدث الناس الا عن جمالها وأناقتها وذوقها فى اختيار ملابسها والمستحدثات التى كانت تفرضها فرضا . ولم تكن أبدا موضع حديث بالنسبة لثروات اختفت أو سجن بسبب الديون أو خيانات كانت دائما تصاحب هذا النوع من حب الليل . كانت محاطة دائما بنوع من اللياقة فى التصرف وعاشت حتى فى عالمها المنزوى عن بقية المجتمع ، عاشت فى عزلة عنه .

ورأيتها مرة ثالثة في حفل افتتاح الخط الحديدى الشمالى الذى أقامته بروكسل لفرنسا بعد أن ربطهما هذا الخط. فقد أقامت بلجيكا الحفل فى المحطة الشمالية التى تلتقى فيها جميع الخطوط الحديدية الشمالية ووضعت فيها كل ما تملكه من فخامة وتألق من أشجار وزهور وماسات وتيجان. وامتلأ هذا المكان الذى لن يشاهده الناس مرتين بخليط طريف من الثياب العسكرية والماس والملابس الحريرية الشفافة وحضرته جميع سيدات باريس الشهيرات . ووسط هذا الجمع من الملوك والأمراء والفنانين والحدادين وأنيقات أوربا رأينا ، أو بالأحرى رأيت أنا وحدى هذه الإنسانة الجميلة وقد ازدادت شحوبا بسبب الداء الخفى الذى قادها إلى قبرها .

لقد حضرت إلى هذا الحفل الراقص رغم سمعتها اكراما لجمالها الخلاب. كانت تجذب جميع الانظار وتتلقى فى سيرها همهمة اعجاب . كان حتى من يعرفونها ينحنون أمامها، وكانت هى كعادتها تتلقى هذا الإعجاب وهذه التحايا فى تعال كما لو كان الناس مدينون لها بها لم يكن شىء من ذلك يدهشنى، ولا حتى أن تطأ بقدميها الطنافس التى وطئتها الملكة قبلها

بخطوات .. كانت تعطى ذراعها فى هذا اليوم لشاب غريب بارد الوجه كالانجليز، أشقر كالألمان مبالغ فى زينته . وكان فى هيئته ومشيته شيء من التعالى لابد أنه جرح احساس هذه الشابة التى تسند إليه ذراعها . ولذا فما كادت تلمح فنانا فرنسيا من عالمنا حتى سارعت إليه قائلة :

ـ آه .. أهذا أنت .. اعطني ذراعك وهيا نرقص» وتركت الذراع الرسمية لفارسها واندفعت في رقصة الفالس الرائعة لا سيما اذا كانت تطيع ايحاء خالقها ستراوس وتأتي مباشرة من ضفاف انرين وطنها الأصلي. كانت ترقص فى روعة ولذا فسرعان ما كف الراقصون عن الرقص وأحاطوا بها وبفارسها فى حلقة كبيرة .

وفى اليوم التالى لهذه الحفلة مرضت مرضا شديدا. وفحصت حالتها بدقة ونصحها الأطباء بالتزام الراحة التامة. وقد التزمتها فعلا يوما أو بعض يوم ثم شاهدها الناس فى اليوم التالى ممتطية صهوة جوادها تعدو به أقصى سرعة . وفي المساء شوهدت فى حالة سكر شديد .

لقد كانت هذه المرأة مختلفة عن مثيلاتها فى كل شىء حتى فى نهايتها . كم من مرة، حينما تقع واحدة منهن فى محنة ، يمر عليها أحد عشاق الماضى فتدعوه إليها فلا يعرفها أو يعرفها ويتظاهر بغير ذلك. أما هذه فقد كانت نهايتها محاطة بالاصدقاء الذين أتوا لخدمتها بدافع الصداقة والتقدير والاحترام وحدها. لم يعد لها عاشقون ولكن كان لها الكثير من الأصدقاء ومع ذلك فلم تأسف على حياتها . كانت تعرف ماذا ينتظرها لو عادت إليها الصحة، وأنها فى هذه الحالة يجب أن ترفع إلى شفتيها من جديد كأس اللذة التى ذاقت مرارتها منذ فجر صباها حتى الثمالة. وقد أوصت بأن تدفن فى مكان منزو معزول عن المقبرة ودون ضجة ، تماما كما تفعل ربة الأسرة الشريفة حين ترحب بالموت لتلقى زوجها وأباها وأمها وأولادها .

ومع ذلك فقد كان موتها رغم ارادتها شبه حدث. فقد سارع أهلها الذين أنكروها فى حياتها إلى بيع كل شىء فى شقتها . وفتحت النوافذ من جديد وكانت الشقة كما هى لم تمس حتى ليظن المرء أنها سوف تبعث بها من جديد أو أن أنفاسها الحارةمازالت تتردد فيها. كانت الوسادة الموضوعة أسفل الفراش مازالت

تحمل آثار ركبتى الشاب الذى جثا بجوارها ليغمض جفنيها للمرة الأخيرة . كان كل شىء فى الشقة يحمل آثارهاوكان كل شىء ثمينا. فهذه الساعة الدقاقة كانت هى التى تدق لمدام دى بومبادور ومدام دى بارى. وكانت الشمعدانات الفضيية محملة بالشموع استعدادا لحديث المساء . وكانت الزهور التى روتها بيديها تموت عطشا فى شرفاتها. كانت اللوحات الجميلة لكبار الفنانين معلقة على حوائطها ومن بينها لوحة لها هى رسمها لها الرسام فيدال ولم يشأ بعدها أن يرسم الا النساء الشريفات. وكانت عصافيرها مازالت تغرد فى أقفاصها . وكانت الشقة مليئة بتحف السيفر والساكس والميناء والبرونز فقد كانت تحب هذا النوع من التحف الكمالية والتى كات هى نفسها احداهما .

كان كل شىء فى مسكنها جميل : ملابسها ، أغطيتها ، أدوات مائدتها ، أدوات زينتها، لدرجة أثارت دهشة أشرف سيدات باريس وأغناهن وأجملهن. ولقد باع أهلها كل شىء حتى خطابات الحب المرسلة إليها وشعرها ولم يحتفظوا اللذكرى بأى شىء .

ولذا لم أدهش لظهور هذه القصة النابضة بالصدق والحياة والشباب والتى تسمى «غادة

الكاميليا» . ولقد نظر لها الناس فى أول الأمر كأحد مؤلفات الشباب غير الناضجة فكانوا يقولون ان ابن الكسندر ديما لم يكن يغادر المدرسة حتى أخذ يقتفى فى ثياب آثار أقدام أبيه وورث عنه الحيوية والتأثر الداخلى والأسلوب النابض والحوار الطبيعى السهل المتنوع الذى يصبغ روايات هذا المخترع الكبير بصبغة الكوميديا .

وهكذا حقق هذا الكتاب نجاحا كبيرا. وما لبث الناس أن تبينوا أن هذه القصة ليست مجرد اختلاق ولكن لابد أن هذه المرأة عاشت وعاشت منذ وقت قريب. ان المسرحية لم تكن مجرد خيال ولكنها مأساة خاصة كانت تبدو فى عرضها حقيقة واقعة. ولذا فقد أخذ الناس يفتشون عن اسم هذه المرأة وحقيقتها ومالبثوا أن علموا بهذه التفاصيل الواحد تلو الآخر. وهكذا نرى ان هذه القصة التى كتبت فى سهولة القصة التافهة يعاد طبعها المرة بعد المرة ويتقبلها الناس فى كل مكان».

لقد أثارت مارى دبليسى هذه عطف من عرفوها جميعا بصفة عامة وعطف الكسندر ديماس الابن بصفة

خاصة . وانتقل هذا العطف منها إلى بقية بنات عالمها من بائعات الهوى فانبرى يدافع عنهن ويحاول معالجة الأسباب التى تدفعهن دفعا إلى الرذيلة فنراه يقول : ان الضرر الذى تسببه بائعة الهوى ضرر لاسبق اضرار فيه ولا يغرق المرء فيه إلا اذا كان غرا ولا يعجب به الا اذا كان فاسقا . لكنه ضرر له عذره وهو الجوع والجهل والقدوة السيئة والوارثة التى لا حيلة فيها وأنانية المجتمع والمبالغة فى الحضارة والمشكلة الأبدية : الحب. والمذنبة هنا تدعو إلى المساندة والعطف ولا تستلزم العقاب . وذنبها هو ذنبنا ولا يمكن أن نكون قضاة طيبين فى نفس الوقت الذى نكون فيه نصحاء سوء .

«ان فتاة بلا ثقافة ولا أسرة ولا مهنة ولا خبز، ولا تملك من ثروة الا شبابها وقلبها وجمالها تبيع كل ذلك لرجل غر يقبل الصفقة. ان مثل هذه الفتاة قد وقعت على وثيقة العار ولذا فان المجتمع يلفظها إلى الأبد . أما الفتاة حسنة النشأة التى تنتمى إلى أسرة طيبة مستقيمة وتملك ما تقتاب به فهى تتزوج من رجل فى سن أبيها أو حتى جدها دون حب لأنه واسع الثراء. وبعد شهر من الزواج تدفنه. ان مثل هذه الفتاة يتلقاها المجتمع بأذرع مفتوحة وكذلك الأمر بالنسبة للرجل ذى

الأصل الرفيع الذى يعانى الفقر حين يتزوج بابنة بائع النبيذ الثرى .

«ان الدين المسيحى قد غفر لمريم المجدلية وللمرأة الخاطئة . ومن العار أن يحكم المجتمع على آلاف الفتيات التى يخلق منهم مساعدات ذكيات ورفيقات مخلصات وأمهات خصبات ؛ ولكنه لا يعرف الا أن يخلق منهن بائعات للهوى خطرات عقيمات . ان مثل هذا الشعب يستحق أن ينهشه البغاء نهشا تاما وهذا ما سوف يحدث له» .

وفى الواقع ان المجتمع الفرنسى قد مر فى الفترة التى عاشت فيها بائعة الهوى التى قدر لها أن تخلد فى رواية الكسندر ديماس الابن بمرحلة يسر مالى أدى إلى تفشى الخطيئة بشكل دقت له نواقيس الخطر. فقد كان من السهل ايقاع العاملات الفقيرات فى الخطيئة كما كان من السهل عليهن بعد ذلك أن يعشن فى حماية رجل ثرى يرعاهن مع تركهن مستمرات فى عملهن. وأحيانا كان هذا الثرى يضع العاملة على رأس محل من محلات الأزياء وقد كانت تلك هى حالة مارى دبليسى ومارجريت جوتييه . ولما اخترعت السكك

الحديدية أثرى بعض الناس ثراء فاحشا وامتلأت باريس بطائفة كبيرة من الشبان الأثرياء من فرنسيين أجانب وكان أغلبهم يخرج من أحط الطبقات . وكان هؤلاء يخشون على سمعتهم من التورط مع هؤلاء الفتيات .

وأصبحت المرأة عاملا من عوامل الترف ومظهرا له مثل كلاب الصيد والخيول والعربيات. فكانت تسلية الشبان مثلا انتشال فتاة كانت تبيع السمك فى سوق (الهال) ثم اغراقها فى القطيفة والحرير ووضعها فى العربيات الفاخرة. ولذا فقد خلت الحوانيت من الفتيات واختفت العاملات وبدأت الوسيطات فى العمل، كما بدأت الاتصالات بين الريف والخارج وباريس وأخذ فى تصدير هذه الطرود البشرية. ووجدت أماكن لعرض هذه الأجساد من أسفل إلى أعلى ووجدت طائفة من الرجال المتهالكين لمعاينة هذه البضاعة أو هذا المعدن غير النقى . وهكذا وجد للفساد محلفوه وأصبحت الفتيات يتباهين بأنهن خرجن من بين يدى الكونت كذا أو المركيز كيت اذ أن ذلك أصبح يؤدى إلى رفع سعرهن . وأصبحن يتعلمن منه الضحك على الأغرار وافلاسهم قبل أن يلقى

بهن إلى المهنة . وأصبحت بيوت اللهو مشتعلة من الصباح إلى المساء ومن المساء إلى الصباح وساد الغش في اللعب والسرقة وسرقة الفتيات بل وحتى الزواج منهن . وبدلا من أن تخفى المرأة منهن هذا العار كقرحة صديدية أخذت تعلنه وتضعه كريشة زينه فوق رأسها . وتغلبن على النساء الشريفات اللاتى قبلن بدورهن الكفاح ضد هؤلاء على الأرض التى وضعتهن العاهرات عليها وأصبحن ينافسهن فى الزينة والنزوات الغريبة وهكذا خلقت صلة تشابه بين بنات حارسات الأبواب وسليلات البيوتات فى الزينة. وأصبحن يتبادلن أنماط الثياب بواسطة أخ أو صديق أو عاشق وأحيانا زوج . وفى نهاية وتلك واحدة وكاد الحب الحقيقى والقلب الصادق يختفى .

وقد بلغت بائعات الهوى من الثراء درجة وصلت إلى خمسة عشر أو عشرين مليونا من الفرنكات وبعضهن انقطعت عن هذه المهنة وتخلصت من مظاهر الترف التى لم تكن بالنسبة لها الا ديكورا مسرحيا وعاشت حياة عادية محتفظة بثروتها كاملة جاعلة من نفسها قدوة لكثيرات غيرها من الفتيات الصغيرات اللاتى لا يملكن الا شبابهن. وبعضهن تمكن من الزواج

والحياة الهادئة المستقرة . وتموت هؤلاء النساء ويرثهن الأبناء والبنات وأبناء العم ،الأقارب ولا يسألهم أحد من أين أتت هذه الثروة الكبيرة . فليس المهم هو من أين ينبع النهر بل المهم أن يجرى وأن يروى الأرض . ولذا فمن اليسير أن يجد هؤلاء الأبناء والبنات أزواجا يجدون في هذه الزيجات شرفا كبيرا . وهكذا تسرب مال البغاء إلى الأسر كما تسرب هو من قبل إلى جميع الأعمال والطبقات .

ثم ما لبثت هذه النوبة العارمة من الثروة والبغاء أن اختفت وقد أحس الكسندر ديماس الابن صنعا بكتابة قصته فى ابان الأزمة وهو متأثر بأحداثها وبشخصية البطلة. ولو أنه ترك الأزمة تمر لما كان من الميسر له بعد ذلك أن يلقى نفس ما لقى من نجاح وفى ذلك يقول بعد خمسة عشر عاما تقريبا من كتابة قصته: «ان غادة الكاميليا التى كتبتها منذ خمسة عشر عاما لا يمكن أن يعاد كتابتها اليوم لأنها لن تكون صادقة بل حتى لن تكون ممكنة فسوف لا يجد الناس حولهم مثلا لهذا النوع من الحب والندم والتضحية ».

ان موضوع «بائعة الهوى»» من الموضعات المحببة إلى الكتاب الرومانسيين جميعا . وقد انتقل إليهم عن

طريق روائى من كتاب القرن الثامن عشر الذين يطلق عليهم جيل ما قبل الرومانسية الا وهو القس بريفو فى روايته المعروفة «مانون ليسكو» . ثم انتقل هذا الموضوع منه إلى رومانسى القرن التاسع عشر من أمثال فيكتور هوجر وألفريد دى موسيه والكسندر ديما الأب . ولقد كان بعض هؤلاء يعطف على العاهرة عطفا شديدا ولا يجد فيها الا ضحية من ضحايا المجتمع اذا أخذ بيدها فقد ترتفع إلى درجة القديسين ومن أمثال هؤلاء فيكتور هوجر حين صور شخصية فانتين فى قصته المعروفة البؤساء ،كيف باعت نفسها ثم شعرها وأسنانها لكى تهيىء لابنتها حياة سعيدة. أما اليكسندر ديماس الابن فموقفه من العاهرة يستحق الدراسة. فهو وان كان قدر له أن يكتب القصة التى أسالت أكبر قدر من الدموع لمصير احدى بنات الهوى فانه لا يذهب فى موقفه من هؤلاء الفتيات موقف التعميم رغم عطفه عليهن .

وفى ذلك يقول فى بداية قصته :

«يا للمخلوقات التعسة .. اذا كان من الخطأ أن نحبهن فلا أقل من أن نرثى لهن . انك نرثى للضرير الذى لم ير أبدا أشعة النهار ، وللأصم الذى لم يسمع أبدا تناسق أصوات الطبيعة، وللأبكم الذى لم يستطع

أبدا اسماع الناس صوت قلبة . ولكنك، بحجة الحياء الكاذب، لا تريد الرثاء لعمى القلب هذا وصمم النفس وبكم الضمير الذى يحيل هذه المنكوبة التعسة إلى مجنونة ويجعلها رغما عنها عاجزة عن رؤية الخير وسماع صوت الخالق والتحدث بلغة نقية عن الحب والايمان .

«وقد كتب هوجر «ماريون دى لورم» وموسيه «برنوريت» والكسندر ديما «فرناند». ومنح المفكرون والشعراء فى جميع العصور العاهرة عطفهم ورحمتهم . وحدث أحيانا أن رد لهم رجل ذو قلب كبير الاعتبار بحبه وأحيانا باسمه .

«لنكف عن احتقار المرأة التى لا هى أم ولا أخت ولا ابنة ولا زوجة ، أن نكف عن قصراحترامنا على الأسرة وتسامحنا على الأنانية . واذا كانت السماء يسعدها توبة خاطىء واحد أكثر من عشرة رجال عدل لم يخطئوا أبدا فلنحاول اسعاد السماء فقد تعيد لنا السعادة مع الفائدة . لنلقى فى طريقنا بصدقة التسامح لمن ضاعوا وسط الشهوات الإنسانية والذين قد ينقذهم الأمل السماوى . وكما تقول العجائز حين يصفن على طريقتهن وصفة طبية :

«اذا لم تأت نتيجة حسنة فانها لن تؤدى إلى نتيجة سيئة».

انه يعطف انن على هذه الطبقة للتعاسة التى تتردى فيها والتى قد لا تشعر هى نفسها بها وسط الجشع وحب المال الذى يسيطر عليها . ان الخطأ الأكبرلدى هؤلاء الفتيات أن يقويهن غير قادرة على الحب ولا تهتزلأى شعور من المشاعَر العميقة، ومن هؤلاء جميع الفتيات اللاتى يعشن فى دنيا مرجريت جوتييه كما صورهن فى مسرحية وروايته على السواء وأكثرهن لفتا للنظر برودانس وأولمب. ان هؤلاء مقتنعات بمصيرهن وليس لديهن من الذكاء أو الشعور ما ينفرهن من الطريقة التى يحببين بها. ان أولمب فتاة ماجنة لا قلب لها ولذا فلم يلبث أرمان أن نفرمنها وقطع علاقته بها، أما برودانس فقد امتصت دم صديقتها مارجريت طول حياتها وكانت تعيش مما تسرقه منها دون علمها. ولما أصبحت مارجريت خاوية الوفاض انقطعت عنها ثم عادت لتظهر بعد وفاتها وتبتز أموال أصدقاء مرجريت بحجة أن ماأنفقته عليها قد أفلسها أن هاتين الفتاتين مثل للنفسية المعتادة لبائعة الهوى. أما مرجريت جوتييه فكانت استثناء شاذا وسط هذا

العالم المتعفن. كانت ذات قلب كبير وكانت قادرة على أن تحب حبا كبيرا وتقدم التضحيات الغالية ولهذا السبب وحده فقد كرهت حياتها وتعذبت وأثارت العطف وأسالت الدموع . أنها اذن حالة شاذة والشاذلا حكم له ولا يجوز أن نذهب منها من حالة الخصوص إلى العموم ونعتبرها مثالا لبائعة الهوى.

وقبل أن نبدأ فى دراسة أثر هذه القصة على التراث الإنسانى لابد أن نقدم للقارىء مقتطفات مترجمة لاسيما للفقرات والمواضع التى أثارت اهتمام القراء وأسالت دموعهم.

فى الفقرة التالية يصف لنا أرمان كيف تغيرت مارجريت تغيرا كليا بعد أن احبته وكيف تخلصت من كل مظاهر حياتها السابقة لتحيا حياة الحب والأخلاص:

«ابتداء من ذلك اليوم انقطعت كل صلة لها بالدوق ولم تعد مرجريت الفتاة التى عرفتها من قبل. كانت تتجنب كل ما من شأنه أن يذكرنى بالحياة التى عرفتها وسطها . كانت تكن لى من الحب مالم تقدمه أية زوجة

أو أية أخت لزوجها أو لشقيقها . كانت هذه الطبيعة المريضة على استعداد لجميع الانطباعات وجميع المشاعر . لقد قطعت صلتها لجميع الانطباعات وجميع المشاعر . لقد قطعت صلتها بجميع أصدقائها وجميع عاداتها السابقة وباللغة التى كانت تستعملها وكذلك بنفقات الماضى. وحينما كان الناس يشاهدوننا نخرج سويا لنزهة فى قارب صغير لطيف كنت قد اشتريته لم يكن أحد منهم ليصدق أن هذه المرأة ذات الثوب الأبيض والتى تغطى رأسها بقبعة كبيرة من القش وتضع على ذراعيها غطاء من الحريرليحميها من برودة الماء، أن هذه المرأة هى نفسها مرجريت جوتييه التى كانت منذ أربعة اشهر تعيش فى صخب الترف والفضائح»(١) .

وتعيش مرجريت فى سعادة الحب وتتحسن صحتها حتى لتكاد تشفى من دائها اللعين ويدفعها الحرص على سعادتها إلى السعى لتوطيد دعائمها بطريقة تضمن لها أطول حياة ممكنة مع حبيبها وفى ذلك تقول :

«ان حبنا غيرعادى يا عزيزى أرمان. انك تحبنى كما لو كنت لم أعرف أحدا من قبل ، وانى لأرتعد لفكرة

(١) غادة الكاميليا ، طبقة نلسون ص ١٨٧.

انك فيما بعد حين تندم على حبك وتعيرني بماضي سوف تضطرني إلى أن ألقى بنفسي من جديد في الحياة التي انتشلتني منها. تخيل أنني الآن وقد ذقت هذه الحاة الجديدة سوف أموت لو عدت للحياة الأخرى»(١)

ثم تقول له بعد ذلك: «أتريد الرحيل؟ سأبيع كل ما أملك ونذهب للحياة معا هناك (في ايطاليا) حيث لا يتبقى لي شيء من حياتي السابقة ولن يعرف أحد من أنا أتريد ذلك؟» (٢)

وكذلك تقول: «انك تحبني، اني لواثقة من ذلك، ولكنك لا تدري كم هو واه ذلك الخيط الذي يربط الى القلب حبا لفتاة مثلي. من يدري؟ ربما في يوم ضيق أوملل سوف تتوصل الى حساب دقيق لكل ما أنفق من علاقتنا» (٣)

ثم تقول بعد ذلك حين يسألها أرمان:

ـ من ذا الذي يستطيع أن يفرقنا؟

---

(١) ص ١٦٠ .
(٢) ص ١٩٢ .
(٣) ص ٢٠١ .

ـ أنت نفسك الذى لا يريد السماح لى بأن أفهم وضعك والذى يدفعه الغرور ليحتفظ لى بالوضع الذى أنا فيه. أنت الذى تريد حين تحتفظ لى بالترف الذى عشت فيه الاحتفاظ بالمسافة الأدبية التى تفصلنا. أنت الذى لا تصدق أن الود الذى أشعر به نحوك لا غرض له وترفض أن تقتسم معى ثروتك التى نستطيع أن نعيش بها معا فى سعادة والذى تفضل أن تفلس تحت عبودية عادة سخيفة . أتظن أننى أعتقد مقارنة بين العربة والمجوهرات وحبك؟ أتظن أن الحب بالنسبة لى هو مظاهر الغرور التى يرضى بها الانسان نفسه حين يكون لا يحب شيئا والتى تصبح تافهة حين يحب؟ سوف تدفع ديونى وتربك ثروتك وتستطيع فى آخر الأمر أن تنفق على! كم من الوقت يستغرق كل ذلك؟ شهرين أو ثلاثة، وحيئذ يكون الوقت قد فات لكى نعيش الحياة التى عرضتها عليك لأنك حينئذ سوف تقبل منى كل شىء وهو مالا يستطيع رجل شريف أن يقبله»(١)

ويقول أرمان لأبيه:

«حسن يا أبى، اننى لا أستطيع أن أعدك بشىء. ان ما تطلبه منى يفوق قواى. انك تبلغ فى نتائج هذه

(١) ص ٣٠٣ .

العلاقة فان هذا الحب بدلا من أن يقذف الى طريق السوء كفيل على العكس من ذلك بأن ينمي في أشرف المشاعر. ان الحب الحقيقي يجعل الانسان أكثر خيرا مهما تكن المرأة التي توحي به. واذا عرفت مرجريت فستفهم أنني لا أتعرض لأى شر معها. انها نبيلة كأنبل النساء وفيها من التعفف مثل ما فى النساء الأخريات من جشع» (١) .

وتقول مرجريت لأرمان بصدد العلاقة بينه وبين أبيه:

... «انى أفضل أى شيء على أن يعتقد أحد أننى أتسبب فى خلاف بينك وبين أسرتك. لندع هذا اليوم يمر وعد غدا الى باريس وسيكون والدك قد فكر من جانبه فى الأمر مليا كما فكرت أنت ولذلك فربما يكون تفاهمكما أقرب من اليوم لا تصطدم بمبادئه وتظاهر بالتراجع بعض الشيء أمام رغباته وتظاهر بأنك لا تتمسك بى كما تفعل الآن فربما حينئذ يترك الأمور تسير كما هى سائرة الآن. لا تفقد الأمل يا صديقى وتأكد من شيء واحد هو أنه مهما حدث فإن مرجريت باقية لك» (٢) .

---

(١) ص ٢١٢ .
(٢) ص ٢١٥ .

وتقول لوالد أرمان حين طلب منها التضحية بحبها في سبيل ابنته:

ـ أعتقد يا سيدى أننى احب ابنك؟

ـ نعم.

ـ حبا خالصا لا غرض له؟

ـ نعم.

ـ اتعتقد أننى جعلت من هذا الحب أمل حياتى وحلمى والشعور الذى يصفح لى ماضى؟

ـ بكل تأكيد.

ـ حسن يا سيدى، فلتقبلنى اذن مرة كما تقبل ابنتك وسوف أقسم لك أن هذه القبلة البريئة الوحيدة التى تلقيتها سوف تقوينى ضد حبى، وان ابنك سوف يعود الى كنفك فى بحر ثمانية أيام ربما تعسا لبعض الوقت ولكنه سيشفيالى الأبد» (١) .

وتقول فى المسرحية فى مثل هذا الموضع من القصة:

---

(١) ص ٢٦٣ مذكرات مرجريت .

«اننى الآن أحب بكل ما تستطيع المرأة أن تجده من طاهر نقى فى أعماق قلبها حينما تأخذ الله بها الشفقة ويمنحها الندم. ان لى ماض تعس ولكن منذ أن أحببت أصبحت على استعداد لأن أمنح آخر قطرة من دمى. ومهما قيل لك عنى فان لى قلبا! اننى طيبة وسوف ترى ذلك حين تتحسن معرفتك بى. ان أرمان هو الذى غيرن. لقد أحبنى وهو مازال يحبنى . وأنت أبوه ولابد أنك طيب مثله. أتوسل اليك لا تقل له شيئل سيئا عنى فقد يصدقك لأنه يحبك. وأنا احترمك وأحبك لأنك أبوه».

وتفيض مذكرات مرجريت بالمواضع المؤثرة التى تشرح فيها مشاعرها الحقيقية لأرمان وما غمض عليه من تصرفاتها . من ذلك:

... «بين تنفيذ التضحية التى قدمتها لك وعودتك مر وقت طويل اضطررت فيه الى اللجوء لوسائل مادية للنسيان حتى لا أصاب بالجنون ولكى أتحمل الحياة التى ألقيت فيها بنفسى من جديد... كان يراودن الأمل فى أن أقتل نفسى بسرعة بالمبالغة فى الملذات وأظن أن هذا الأمل لن يلبث أن يتحقق. وقد ساءت صحتى حتما

من سيء الى أسوأ.. ولا أذكر يا أرمان بالطريقة التى رددت لى بها الدليل الأخير على حبى الذى قدمته لك ولا بالاهانة التى ترددت بها من باريس المرأة التى لم تستطع أن تقاوم، وهى على وشك الموت حين طلبت منها ليلة حب، والتى وسط جنونها أنها تستطيع أن تصل الماضى بالحاضر من جديد، انك على حق حين فعلت ما فعلت يا أرمان: فلم يدفع لى أحد أبدا ثمن ليالى غاليا هكذا.

«ان هذا الأمل فى الصحة لم يكن الا حلما ها أنذا من جديد فى فراشى وقد غطى جسدى كله بالكمادات التى تلهبه، ولو أنك عرضت هذا الجسد الذى كان دفع الناس فيه ثمنا غاليا لرأيت أى ثمن يدفعون فيه اليوم، لابد أننا قد اقترفنا ذنوبا كبيرة قبل ولادتنا أو أننا سوف نحظى بسعادة كبرى بعد موتنا ليرضى الله بأن تتحمل حياتنا كل هذه الألوان من التعذيب والتفكير والامتحان» (١) .

وتقول فى آخر المذكرات وهى تكاد تلفظ أنفاسها الأخيرة ويحيط بفراشها الواقفون من كل جانب:

«استيقظت هذا الصبح على ضوضاء شديدة وسمعت أصوات رجال كانت جولى تقاومهم دون جدوى ثم

---

(١) ص ٢٧٢ .

عادت ال باكية وقالت: «لقد أتوا لتوقيع الحجز» فقلت لها أن تدعهم ينفذون ما يسمونه بالعدالة، ودخل المحضر الى غرفتى وقبعته فوق رأسه وفتح جميع الأدراج وسجل كل ما وجده بها ولم يبد ما يدل على أنه لاحظ وجودى محتضرة على الفراش الذى تفضل القانون لحسن الحظ بتركه لى، وقبل مغادرته المكان تكرم وقال لى اننى أستطيع المعارضة فى بحر تسعة أيام ولكنه ترك وراءه حارسا، ما الذى سوف يحدث لى يا الهى، لقد زاد هذا المشهد من مرضى، وقد أرادت برودانس أن تطلب نقودا من صديق والدك ولكنى عارضت رغبتها»

ويقول الكسندر ديماس الابن فى خاتمة تلك القصة:

«اننى لست رسول الرذيلة ولكنى سأجعل من نفسى صدى للألم النبيل الذى تسببه فى أى مكان أجده يصلنى فيه.

ان قصة مرجريت استثناءوهذا ما أكرره، ولو كانت عامة لما كان هناك داع لكتابتها».

أما من ناحية التراث الانسانى فقد ترجمت هذه القصة فى صورتيها المسرحية والرواية الى لغات كثيرة

وأسـالت الدمـوع فى أمـاكن عـديدة من العـالم الا أن تصـوير بائعة الهـوى بطلة لقـصـة لم يكن جديدا على الأدب الأنجليـزى مـثـلا الذى سـبق الأدب الفرنسـى فى هذا الموضـوع حين كتب ريتشـار دسـون قصـتيه «باميلا» (١٧٤٢) «وكلايسا هارلو» (١٧٥١) .

ومما يذكر أن القس بريفو قبل أن ينشر قصته هو «مانون ليسلو» التى يصـور فيها الفتاة الماجنة حين تحب حبـا صـادقـا فـتـتـغـيـر تغيـرا كليـا قـد تـرجم قـصـتـى ريتشـاردسـون ونشـرهمـا ليفتح المجال بعدهمـا لقصـتـه. ومنذ ذلك التـاريخ أصـبح للبـغـى الحق فى أن تـأخـذ مكانهـا على المسـرح كـغـيـرهـا من البطلات. وفى سنة ١٨٣١ كتب فيكتور هوجـو مسـرحيتـه (مـادديون ديلورم) عن الموضـوع نفـسـه الذى عـاد يعـالجـه من جـديد فى قصـتخ المعروفة ـ البؤسـاء ـ فى شـخـصـيـة فانتين كمـا أسلفنا، وجـعل الروائى المعروف بلزاك من دنيا البـغـايا موضوعا اروايته:

«بريق العاهرات وبؤسـهن» (١٨٣٥) حيث صـور لنا بطريقتـه الوصـفيـة الفوتغرافية البؤس الحـقـيقى المروع الذى تعيش وسـطه هذه الطبقة من النسـاء .

واهتم كثير من الكتاب الفرنسيين، من غير الروائيين، فى ذلك العهد بموضوع بائعة الهوى فأفرد لها ج. ميشليه فى كتابه «المرأة» - ١٨٥٩ - فصلا عبر فيه عن رأيه فيها، وهو يرى أن الأمل ليس مفقودا فى اصلاحها كما أنه ليس مفقودا فى اصلاح حتى المرأة القاتلة، وهو يسميهن «شهيدات وقديسات البغاء» ويفرق فى ذلك بين المرأة بهيمية الشهوات وتلك التى تضطر الى ذلك بدافع البنوة أو الأمومة، ويقول فى ذلك: «ان قلوبهن المحطمة ولكنها نقية طاهرة، أنقى من قلب أى امرأة أخرى متعطشة الى الشرف والى الحب وليس ثمة من هى أجدر منهن بالحب»[١] .

ويعود روائى فرنسى حديث الى هذا الموضوع فى منتصف القرن العشرين فيتلمس الأعذار للمرأة الخاطئة ويفرق بين دنس الجسد ودنس الروح ويرى أن دنس الجسد من اليسير غسله أما دنس الروح فهو الذى لا يمكن تطهيره، وفى ذلك تقول البطلة أنيت ريفيير فى قصة «النفس المحسورة» لرومان رولان: «لقد دنست

(١) ميشليه «المرأة» طبعة هاشيت ص ٤١١ - ٤١٢ (١٨٥٩) .

جسدى ويدى وعينى ولذا أغسلها فى عنف، ولكن قلبى طاهر لم يمس فان الوحل لم يصل اليه» (١) .

وقد كان لقصة «غادة الكاميليا» أثر كبير على الأدب العربى، فترجمت المسرحة فى أوائل هذا القرن ومثلت فترة طويلة ومن الممثلات اللاتى تألقن فى هذا الدور السيدة زنيب صدقى، الا أنه ليس ثمة ترجمة أدبية دقيقة لا للمسرحية ولا قصةولا ندخل فى الحسبان هنا «مذكرات مرجريت» للمنفلوطى رغم النجاح الذى حققته تلك المذكرات فى القارىء العربى فى مطلع هذا القرن اذ أن المنفلوطى لم يكن يعرف الفرنسية وكان يعتمد فى الترجمة على صديق له يذكر له موضوع القصة ثم يتركه ينمقه بأسلوبه ويضيف اليه ماشاء مما تمده به المحسنات البيانية والبديعة ولذلك فان صلة القرابة بين الأصل الفرنسى ومذكرات مارجريت كما ترجمها المنفلوطى بعيدة كل البعدولا يقلل ذلك من أهميته تأثر القارىء العربى بهذا الموضوع رغم بعده عما يألفه العرف والتقاليد فى مصر والشرق العربى عامة.

---

(١) رومان رولان ـ النفس المسحورة الجزء الثاني ص ٤٩٥ طبعة الباان ميشيل ١٩٥٠ (١٥٠٠) .

وأراد أحد كتاب القصة العرب، وهو سورى كان يقيم فى مصر، مطلع هذا القرن، وأغنى به نجيب الحداد، الدخول فى تجربة من نوع جديد لتقريب موضوع بائعة الهوى التى يطرها الحب من الذوق العربى فكتب قصته (حواء الجديدة) أو (ايفون مونار)، ولكن كيف يمكنه جعل العاهرة بطلة للقصة والذوق العربى يرفض حتى وجودها فقد أباح الاسلام تعدد الزوجات وما ملكت ايمان الرجال خصيصا ليحمى المرأة من التردى الى هذا الدرك الأسفل من البهيمية البشرية، وكان لابد له اذن أن يجعل بطل قصته فرنسية لاعربية ، وقد خلط الكاتب فى شخص بطلته بين فاتتين بطلة قصة البؤساء لفيكتور هوجو التى اضطرت لاحتراف تلك المهنة لتربية ابنتها التى رزقت بها بعد خطيئتها الأولى، وبين مارجريت جوتييه التى احترفت تلك المهنة بدافع الضغط الاجتماعى وحب الترف معا. ولذا فقد للشفقة وفى ذلك يقول جورجى زيدان صاحب الهلال:

«ولى ملاحظات تتعلق بما وصفت به ايفون عروس روايتك من الطهارة وسمو الآداب مع ما سوغته لنفسها من مساكنة رجل بلا زواج . وقلت انها فعلت ذلك

اضطرارا وما رأيناها يئست من العيش الحلال فلم تقص شعرها ولا اقتلعت أضراسها كما فعلت «عروس البؤساء»، واذا قيل أنها فعلت ذلك رغبة فى الرجل فقد نزلت من المكان الذى وضعتها فيه ولا عبرة بماذكرته فى القصة بين ذاتها الجسدية وذاتها الروحية فان ذلك يخالف المألوف والمعقول فكيف يكون الانسان دنسا وروحه طاهرة» (١) .

وهكذا كان النجاح الذى حققته تلك القصة ضئيلا رغم ما يدعيه مؤلفها نفسه لها من نجاح. وقد ظل المجتمع العربى الى يومنا هذا برغم تأثره لمصير مرجريت جوتييه ينظر الى هذه القصة كمصدر خطر أخلاقى واجتماعى ولا يقدمها أى رب أسرة لأولاده لقراءتها وظلت بائعة من الشخصيات التى تثير النفور أكثر من العطف لاعتقاد الجميع بأنها امرأة فاسدة لا خير فيها وأن وسيلة العيش الشريف ليست مستحيلة بالنسبة لأى كائن ومهما تكن الظروف.

ومهما يكن من أمر فقد أحدثت قصة «غادة الكاميليا» لألكسنر ديماس الابن دويا كبيرا لدى نشرها

(١) خطاب جورجى زيدان إلى المؤلف وقد نشر فى خاتمة القصة.

أو تقديمها للمسرح وترددت أصداء هذا الدوى فى العالم أجمع وكثر الجدل حولها فى جميع المجتمعات مهما بلغ تفاوتها بين التزمت والاباحية. ومع ذلك فقد أثارت الشفقة وأسالت الدموع فالقيم الانسانية الحقيقية تقتضى بأن نؤمن بأن ليس ثمة فساد مطلق أوشخص لا يمكن اصلاحه وأن المشاعر العميقة النبيلة كفيلة بأن تهز اكثر النفوس غيا وتنقلها من هامش دنيا الناس الى صلب هذه الدنيا ذلك هو ما أراد المؤلف التدليل عليه ولا نظن أن ثمة من يختلف معه فى تلك.

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥١١٩/١٩٩٤

I.S.B.N 977-01-3895-9